لماذا افتتح العرب سورية

بقلم الاب لامنس اليسوعي

في الرابع عشر من شهر ايلول سنة ٦٢٩، حمل الامبراطور هرقل الى اورشليم، باحتفال لا مزيد عليه، ذخيرة الصليب المقدّس التي كان قد استعادها من الفرس. فكان ذاك اليوم يوم مجد باهر وظفر عظيم للنصرانية جمعاء. ولا يزال المسيحيون حتى الآن يعيدون ذكراه بالاحتفالات التي يقومون بها في عيد ارتفاع الصليب، وبالنيران التي يضرمها اللبنانيون كل سنة بامانة مؤثرة فتتدلع السنتها على قمم جبالهم المتنابهة.

وكانت افراح العيد لم تنته بعد، عندما وصل الخبر الى هرقل ان رجال الغلائم من فرسان البيزنطيين ردّوا هجمات بضعة آلاف من شُذّاذ البدو فارجعوهم الى الوراء في محلة مُوتة، على مدخل البادية السورية، الى الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر الميت، قرب المكان الذي تقوم فيه اليوم بلدة الكرك (شرقي الاردن).

كانت تلك الشراذم قد اتت من المدينة التي كان قد هاجر اليها محمد، منذ سبع سنوات (٦٢٢) فاخذ يعمل فيها على جمع القبائل العربية تحت راية الاسلام. على ان تلك الحملة المضطربة المديمة التنظيم لم تأتِ بنتيجة. وكأن محمدًا سبق وادرك عقم عاقبتها، فامتنع عن مرافقة رجالها، هو وابو بكر وعمر وكبار الصحابة.

وبعد ان مضى سنتان على فشل العرب في مُوتة، اراد النبي ان يقود بنفسه الثلاثين الف عربي الذين جمعهم اذ ذاك. فسار بهم حتى موقع تبوك. فوقف

لا يجسر على التقدم ولا على المخاطرة بتخطي الحدود السورية . ولم يلبث ان رجع ادراجه مع رجاله ، ولما يستلوا سيوفهم من اغمادها . هما تجربتان عقيمتان شاء بعض المستشرقين ان يستثمرهما فيستنتجوا ان محمداً فكر طويلاً ، او على الاقل ، اراد ان يباشر فتح الشام اما الحقيقة فتختلف عن ذلك كما سنرى .

قد يذكر المطالع الكريم اسم الروائي الفرنسوي هنري دي بورنيه ، مؤلف رواية وطنية كثيراً ما مُثلت ، وهي « ابنة رولان » . فان للمؤلف نفسه رواية تمثيلية شعرية اخرى دعاها باسم « محمد » ، وقدمها سنة ١٨٨٨ للمسرح الفرنسوي «Théâtre Français» فقبلتها لجنة التمثيل في المسرح المذكور في ١٨ حزيران من تلك السنة . على انها لم تمثل قط ، لأن المراقبة الفرنسوية منعتها ، لما كان من تدخل السلطان عبد الحميد نفسه . وعلى اثر ذلك ارسل السلطان الى باريس (على قول مصدر شبه رسمي في جريدة الطان : ١ نيسان ١٨٩٠) « معبّرًا عن وداده الفائق للرئيس كارنو ، ولحكومته ، ولفرنسة » .

في الفصل الثالث من هذه الرواية ، يفرض هنري دي بورنيه ان العساكر البيزنطية مشت على المدينة . فيبلغ الخبر محمداً ، فيهيج اذ يرى جزع رجاله ، ويقرّعهم قائلاً :

الروم على مقربة منا ؟ لقد كنت اظنهم ابعد من ان نصل اليهم . . .
ان سائر اعدائنا من فرس ومصريين ،
قرّرت ما سيؤول اليه مصيرهم في خططي السابقة :
انني ارى ، تحت السماء ، افضل من المدينة ، وافضل من مكة ،
انني ارى شبه الجزيرة الايطالية وشبه جزيرة اليونان .
ارى آسية تُفتح على اثر بضع معارك ؛ .
والقسطنطينية ، هناك ، مفتاح اوربة ،
ثم اسبانية التي يحجبها اوقيانوس مزدوج ،
ثم اعماق اوربة الغائمة !
الى هناك يجب الذهاب ، والى هناك سنذهب ،
فنضرب بمراكبنا الشامخة تلك البحار الباردة ،
ونفتح ذاك العالم الفسيح امام خيولنا المورّدة الحروب .

هذا صل الاسلام ، وهذا ما ساباشره بنفسي.(١)

يرى المطالع ان الروائي قد وسّع ، على غير قياس، ميدان بطله في التاريخ والجغرافية . على اننا لا نشاحن شاعرًا في شعره مـا دام بعض المستشرقين ، من الذين يأخذ الناس بقولهم ، جروا على الطريقة نفسها فنسبوا الى محمد مـا نسبه اليه دي بورنيه ، على الاقلّ في ما خصّ سورية . وهو خطأ يتحققه من يمعم النظر في مقالنا فان الافق السياسي الذي رمى اليـه صاحب القرآن لم يتجاوز قطّ حدود جزيرة العرب . يوافقنا على ذلك العالِم الاسلامي المعروف ، الاستاذ سنوك هورغروني ، عضو المجمع العلمي الدمشقي . فانه القى ، في هـذا الموضوع ، محاضرةً هولندية ظهرت ترجمتها الفرنسوية في مجلة العـالم الاسلامي في باريس بعنوان « الاسلام ومشكلة الشعوب »(٢) . وها اننا نذكر ما جاء فيها ماسًّا موضوعنا الحالي ، قال : « لقد اظهر محمد دعوته كرسول مبعوث من الله ، لا للبشرية جمعاء ، بل للعرب وحـدهم ... وان الفتوحات التي نكاد نراها عجيبة كانت ، في القسم الكبير منها ، نتيجة تلك الصدمة القوية التي أثّرها محمد في قوى الاعراب المجتمعين تحت لوائه . ولكنها نتيجة لم يكن هو نفسه ليتوقعهـا ، ولم تكن لتصدر عن تنفيذ خطّـة قد سبق فقرّرها.» وهو قول يعبّر ، كما يرى المطالع ، عن النظرية نفسها التي عرضناها وبرهنا عليها غير مرة.

* * *

اما تلك الخطّة ، ان كان هناك من خطة في الفتوحات الاسلامية ، فـلا تظهر في مجالس شورى الخلفاء الّا عدة سنين بعد وفاة محمد . واما فتح سورية فقد بدأ وتتابع واتّسع عن غير توقع من الفاتحين ، بل نكاد نقول عن غير قصدٍ منهم . فلم يفيقوا من نشوتهم الّا وهم اصحاب البلاد التي شاؤوا اولًا ان يغزوها فينهبوها . ثم يعودون الى مقرّهم دون ان يفكّروا بالاقامة فيهـا

(١) Henri de Bornier, *Mahomet*. Acte III, sc. 5

(٢) Snoucke Hurgronje, *L'Islam et le problème des races*. [Revue du monde musulman. vol. 50, 1922, p. 1-27]

تبوك : مضارب بدوية

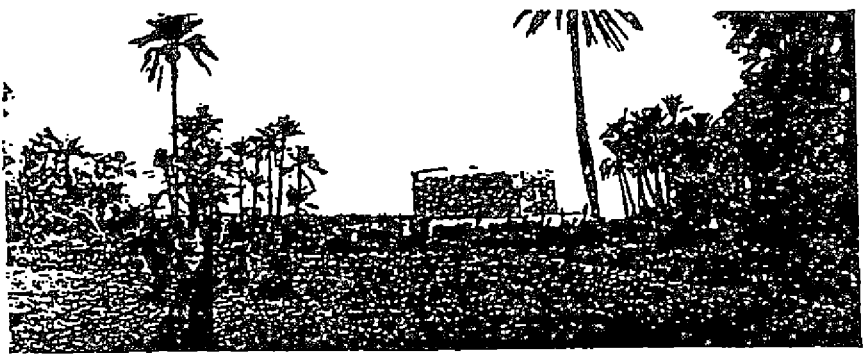

تبوك : منظر بئر

تبوك : منظر نخيل

وبسط سلطتهم عليها. ولا يعني هذا أنهم لم يهتموا بالأمر ، ولم يستفيدوا من استيلائهم على سورية ...

هذا ولا شكّ ان التاريخ العربي التقليدي ابعد من ان يقبل هذه النظرية ، وابعد من ان يُقرّ بوجوب هذا التحفظ في احكامه المتداولة. فهو يتبسط في الكلام على مجلس حرب ترأسه ابو بكر في المدينة فبحث في وجوب اقرار خطّة للفتوحات وتوزيع مهامّ تنفيذ هذه الخطّة ، الى غير ذلك من الاساطير التي يظهر فسادها لمن تعمّق في درس مقدّمات فتح الشام ، فظهر له مرجّحاً ان البدو المكتسحين ساروا الى مناطق سورية وفلسطين دون ان يستشيروا الخليفة الاول . وهو برهان جديد على ان محمّدًا لم يفكر قطّ بوضع خطّة لهذا الأمر ، ولم يترك لخلفائه اقل وصية في الموضوع.

يُخطئ اكثر مؤلفينا في شرح هذا الحادث التاريخي اولًا لأنهم يأخذون دون تمحيص بروايات مشكوك فيها ، وثانياً وخصوصاً لأنهم لا ينتبهون الانتباه الكافي لدرس نفسية العرب . فالعربي الحقيقي ، اي البدوي ، صاحب المضرب ورفيق الجمل ، ابعد الناس عقلية واستعداداً عن المكتسح الفاتح . قال اسطرابون ان البدو من « اضعف المقاتلة ولكنهم من امهر التجّار.»

ثم ان درس الحياة الجاهلية يدلّنا على ان البدو لم يعرفوا من الحرب الّا مظهرها القديم ، اي الغزو بما يجرّه من سلب ونهب وهرب وقد تقدّم لنا الكلام[1] على صفة تلك الغزوات البدوية التي تبعد البعد كلّه عمّا نعرفه الحروب والمعارك من مظاهر وشروط . فالغزوة غارة شعواء مضطربة ، تثير كثيرًا من الضجة ومن الغبار ، ومن دخان البارود ايضاً في العصور المتأخرة . ولكنها قلّما تسيل الدماء . بل ان من شروطها ان يتوصل الغازون الى سلب ما يريدون دون ان يقتلوا احدًا . فيسوقون القطعان ولا غاية لهم الّا الهرب قبل ان يلحق بهم اصحاب المال. يقومون في ذلك بكل ما أوتوه من اساليب الاحتيال والمفاجأة والبيات ورعب العدوّ ، ليس غير . اما اذا تجاوزت تلك

---

١) راجع مقالنا السابق في « نفسية البدو قبل الاسلام » المشرق (٣٠[١٩٣٢]١٠١)

الحركات الى اهراق الدماء فلا يكون ذلك عن قصد او تعمّد ، بل عن صدفة يأسف لها الغزاة انفسهم ، اذ يكونون قد اجابوا بوادر الغضب والحدّة فخرجوا موقتاً عن عادتهم المعروفة متحوّلين من نهبة محتالين الى محاربين حقيقيين. هذا ما يقوم به العرب من الغزوات. واننا نتأكد ذلك اذا انتبهنا لما كان يوصي به محمد نفسه رجاله ، قبل سيرهم الى المواقع وهو لا يكاد يختلف في شيء عما اوصى به ايضاً قبيل وفاته . وملخّصه : « سيروا بكل تحفظ حتى لا تثيروا الشبهات . اختبئوا في النهار ، وتقدّموا في الليل ، وبيّتوا العدوّ عند السحر . تقدموا بالغزوة ثم ارجعوا بالسرعة ذاتها . »

هذا ولا عجب ان تكون سورية اثارت مطامع اهل الحجاز « بلد الجدب والفقر والضيق »[1]، فاتجهوا اليها بابصارهم الطامحة ، ورغبوا في خيراتها التي تتقلهم الى الرخاء ، فضلاً عن سدّ الجوع وتسهيل المعيشة. كيف لا ، وهي كما يسميها انعتهم ، بلاد « الخمر والخمير ، والاس والتأمير ، والديباج والحرير. »[2] بل هي خير البلاد في نظرهم كما يُستنتج من حديث قديم يرفعه بعضهم الى محمد نفسه فيقول « قُسم الخير عشرة اعشار: فجعل تسعة اعشار في الشام ، وعشر في سائر الارض. وقسم الشرّ عشرة اعشار : فجعل عشر بالشام وتسعة اعشار في سائر الارض. »[3]

وعلى هذا المنوال كانت معيشة سلفاء البدو منذ القديم . فان الاخبار المدوّنة في التوراة وما اليها من اسفار العهد القديم تدلّنا على ان العمالقة والمدينيين كانوا يتهافتون على سهول فلسطين المزروعة ، زمن الحصاد ، تهافت الجراد وعندما كان البدوي يفشل في الغزو ، كان يلوذ بالفرار مسرعاً الى صحرائه حيث لم يكن احد ليتمكن من اللحاق به . وهذا ما دفع كتبة اللاتين الى القول « ان بلاد العرب تفيض من النهب ». مما يدل على ان الغزوات كانت قد اصبحت حالة الشعب الطبيعية ومرفق المعيشة الاعتيادي . حتى ان

١) الاغاني ١٤ : ١٥٦
٢) الاغاني ١٩ : ٦٥
٣) ياقوت ٣ : ٢٤٠

حاتم طيّ ، اكمل مثال للجود والكرم عند الجاهليين ، كان ، اذا تكاثر عليه الاضياف وعجز عن قراهم ، صرفهم الى « ما بعد الغزوة المقبلة ».

هكذا كانت حالة العرب عندما اتى الاسلام فاعلن ان جميع المؤمنين اخوان مجتهداً في اقرار السلام بين القبائل المختلفة . فكان من نتيجة ذلك ان الغزوات ، وان لم تتقف تماماً ، اصبحت اضيق نطاقاً من ذي قبل ، واقلّ من ان تقوم بحاجات العرب الذين كانوا قد تعوّدوها طريقةً سهلة لكسب المعاش . فكان محمد بنسخه الغزو بين المؤمنين ، واقراره السلام الاسلامي في انحاء الجزيرة ، حمل البدو ، من غير ان يقصد ، على الطموح الى ما جاورهم من البلاد آملين بان ينزوها يوماً ما وينهبوا منها ما كان يحرّم عليهم نهبه في بلاد المؤمنين .

وبهذا المعنى وحده يمكن القول ان محمّداً اعدّ العرب لفتح الشام.

* * *

وقد جرّب بعض المستشرقين ان يشرحوا الفتوحات العربية على غير ما قدّمنا، فلجأوا الى فكرة الشعبية وعقلية العنصر ، وزعموا ان بدو الحجاز أتوا سورية كي يحرّروا قسماً من وطنهم كان يئنّ « تحت نير الاجنبي » (دي غويه). ولا يخفى ما في هذا الشرح من الخطأ والوهم ، لاننا ننسب به مجاناً الى بدو الجاهلية نظريّات عصرنا المتزعزعة في العناصر البشرية ومعلوماتنا المضطربة عن عقليات الشعوب وقومياتها ، ولم يكن اذ ذاك شيء من ذلك . فان مدلولات الوطن والشعب والقومية وما اليها من المجرّدات لم تكن لتفقهها عقلية الاسماعيليين المادّية ، ولم يكن ليهتمّ بها اولئك البدو ، وهم اقرب الامم الى العمليّات ، واعلقهم بالفرديّة . هذا ما جرّ الى الخطأ المستشرق دي غويه (de Goeje) الذي كان لغوياً اقدر منه مؤرّخاً. يتّضح ذلك لمن يقابل بين رسالته « في فتح سورية » ومنشورات كايتاني (Caetani)

وفي هذا الموضوع ، كما في غيره مما يتعلق بالعرب والاسلام ، علينا ، قبل كل شيء ، ان نفتح القرآن فنطلع على ما كان يراه عرب الربع الاول من القرن السابع في ما خصّ فكرة « العنصر » او « الشعب » .

يؤكد القرآن وحدة النوع البشري، ولا تأثير عنده ، في الموضوع، لحادثة برج بابل. فهو ، وان ذكر «اختلاف الالسنة والالوان» فانما يذكره «آية» اي اعجوبة من اعاجيب الله الذي يحب التنوّع في الوحدة. فيقول: « ومن آياته خلقُ السموات والارض واختلافُ السنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين » (٣٠: ٢١) ثم هناك نص آخر يوفق بين تلك الوحدة الاصلية الاساسية وهذا التنوّع العرضي ، فيقول : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. ان اكرمكم عند الله اتقاكم. ان الله عليم خبير» (٤٩: ١٣).

ولم تكن هذه العقيدة القرآنية لتحول ، بعد اتساع الفتوحات ، دون ظهور روح عربية مسيطرة بنت سياستها على عكس ما جاء في هذه الآيات. فاخرجت العقلية البدوية من جمودها وانفرادها القديم ودفعت بها الى قومية عربية لم تكن لتعرفها زمن الجاهلية. فكانت هذه القومية نتيجة اتساع الفتوحات وتسلّط العرب لا سبباً للفتح كما يزعم بعض المؤلفين. وكان من تأثير هذه القومية المتطرّفة ان اثارت احتجاجات الشعوبيين، وهم متنوّرو المسلمين من غير العرب، فقاموا يجاهدون ويطالبون مدة طويلة حتى حصلوا على المساواة بينهم وبين الجهّال من البدو. فكان من نتائج تلك القومية العربية العمياء ان جعلت ، حتى بين المسلمين انفسهم ، اقليّةً سياسية تطالب بحقوقها الى جانب الاقليات الدينية كالمسيحيين واليهود وغيرهم.

ولنسأل الآن كيف كان يعتبر عرب الحجاز وما اليه من الجزيرة اهل سورية ، ورعايا الامبراطورية الشرقية ؟

كانوا يعتبرونهم « روماً » اي بيزنطيين ، لا عرباً كما يريد بعض المتأخرين ان يجعلهم. من الحقّ ان عدداً من القبائل العربية الاصل كانت قد نزلت ، قبل قرون عديدة ، في البوادي المقفرة المتابعة بين الفرات ووادي العاصي المتصل بمنخفض الاردن. فكانت تتكلم لغة مزيجة من السريانية والعربية عليها مسحة الارامية ، حتى عصر الفتح ، فاطلعت على عربية قريش ، وهي لغة القرآن ، واخذت باستعمالها. ولهذا لم ينبغ احد ، قبل الاسلام ، من شعراء هذه القبائل السورية العربية الأصل. ولكن من الحقّ

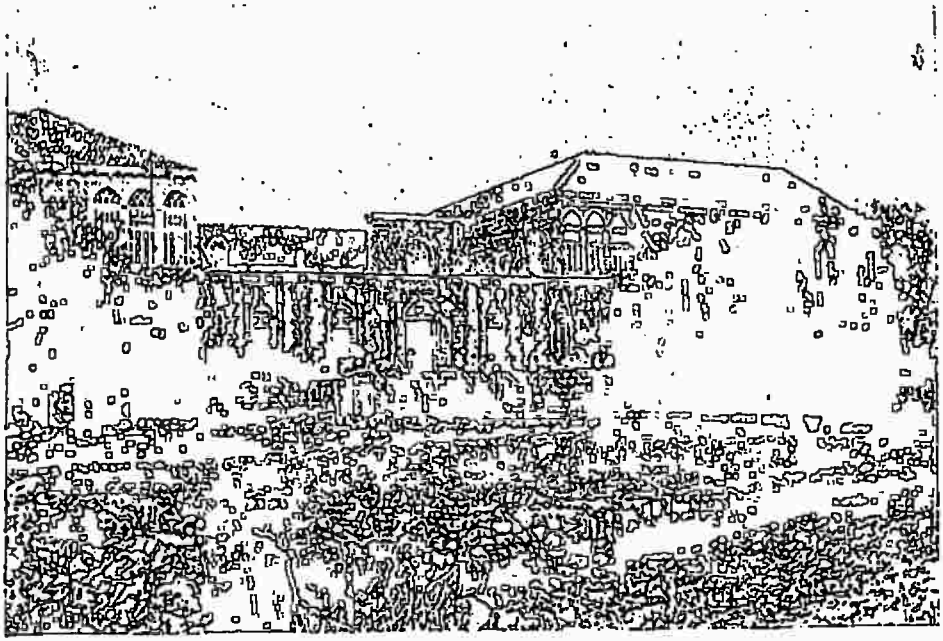

الدير الرئيسي لجمعية راهبات العائلة المقدسة المارونيات ، في عبرين (لبنان)

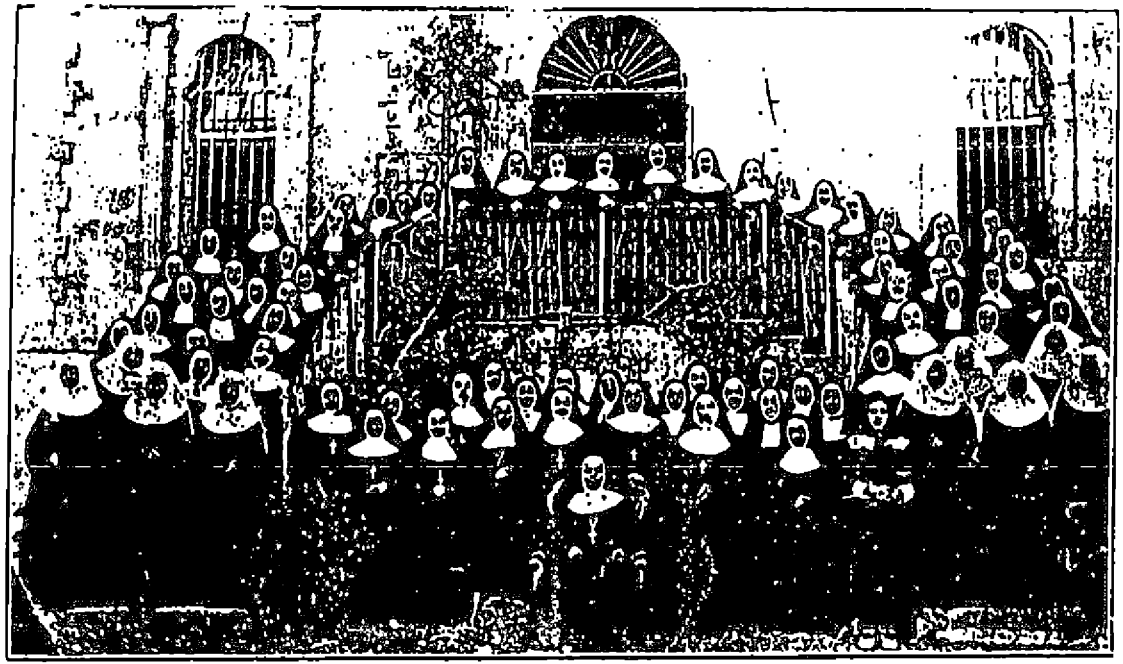

مجموع راهبات العائلة المقدسة المارونيات سنة ١٩٣٦

أيضاً ان بدو الحجاز لم يهتموا في عصر من العصور ، بل لم يظهر انهم شعروا بما كان من القرابة بينهم وبين تلك القبائل التي كانوا يخلطون بينها وبين غيرها من سكان سورية ، فيسمونهم جميعاً « اهل الشام ».

واذا انتقلنا الآن الى عرب سورية فتساءلنا كيف كانوا بدورهم يعتبرون بدو الحجاز ، فنرى انهم كانوا يترفعون كل الترفع على سكان جزيرة العرب ، ويبذلون جهدهم في ان يبعدوا عن بلادهم السورية « قمل الحجاز » ، و « حرشة الضباب وأكلة اليرابيع » كما كانوا يدعونهم تهكماً واحتقاراً . ولم يكن عرب سورية اذ ذاك بارغب من عربها اليوم في ان يروا اهل الحجاز يتدخلون في شؤون بلادهم . فكانوا يقومون بما طلبته اليهم الادارة البيزنطية من حفظ الحدود السورية ، والسهر على الامن في البادية ، ومراقبة مرور القوافل والقبائل البدوية .

* * *

هذا بالاجمال موقف سورية من بدو الحجاز ، وموقف هؤلاء من سورية عند الفتح الاسلامي . والخلاصة ان العرب جاؤوا ، في النصف الاول من القرن السابع ، فغزوا سورية لأن البيزنطيين اهملوا حراسة حدودها . وانهم ظلوا مقيمين فيها لأن البيزنطيين لم يقووا بعد ذلك على طردهم منها . على هذه الطريقة ، ولهذا السبب افتتح العرب سورية . اما ما يُقال في ذلك غير ما تقدم فهو إمّا نظرية متطرّفة لا تستند الى برهان او بلاغه خطابية جوفاء .